مجلة (لغة – كلام) تصدرعن مخبراللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 09/ العدد: 03- جوان (2023) - ص 96-108

القراءة السياقية في الخطاب النقدي عند بسام قطوس

Contextual reading in the critical discourse of Bassam Quttous

دنيا دهينة
do.deheina@univ-setif2.dz
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 / الجزائر

تاريخ الاستلام: 2022/09/06 تاريخ القبول: 2023/06/13 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص البحث

الفكر والمادة ثنائية محوريّة اتخذتها الفلسفة والعلوم أساساً تقوم عليه وتنشأ من تناقضاته وتفرعاته اللّانهائية الاحتمال، و اقتضى الحال تطبيق الفكرة المجرّدة على أرض الخطاب بعلاقاته الخارجية، ومضامينه الناتجة عن فكر المؤلف، وتركيبته النفسية والاجتماعية. فيكون الهدف تقديم قراءة جديدة لخطاب بذاته ولمؤلف بذاته وفق مناهج سياقية يعتمدها القارئ من باب الاختيار للتحليل .

لهذا تسعى هذه الدراسة إلى تأصيل المفاهيم المتعلّقة بالمناهج النقدية الخارجية والكشف عن الميكانيزمات الخاصة بالقراءة السياقية لتحديد طبيعة هذه الممارسة على الأدب والنقد. إضافة إلى تسليط الاهتمام على القيمة المضافة للقراءات السياقية للخطاب في زمن نقديّ يخضع لأحكام التحوّل الزمني والفكري باستمرار.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، المؤلف، القراءة السياقية

ABSTRACT:

The goal of this study is to present a new reading of a discourse in itself, and of a specific author, according to contextual approaches adopted by the reader as a choice for analysis.

Therefore, this study seeks to consolidate the concepts related to external critical approaches and to reveal the mechanisms of contextual reading to determine the nature of this practice on literature and criticism. In addition to highlighting the added value of contextual readings of the discourse in a critical time subject to the provisions of temporal and intellectual transformation constantly.

Keywords: discourse, author, contextual reading.

1.مقدمة:

المنهج النقدي سبيل الناقد وخطته الحذرة لمناظرة النص واستنطاقه وتقويله أو القول فيه بما يسطّره النص الأصلي من حدود لابد أن يطأها قلم الناقد إن هو وُفّق في تنصيب المنهج النقدي المناسب للدراسة والتحليل. وقد ارتبط ظهور المناهج النقدية بأشكالها المختلفة بازدهار الحركة العلمية والعقلية وبتشعب المعارف والعلوم وكثرتها، وبتعدد الآراء والأفكار والتصوّرات والايديولوجيات.[1] ولعلّ حقيقة تأثر النقد بمظاهر التحوّل الحاصلة في العالم تفسّر جهود الدارسين لتجاوز أزمة النقد وقصور آلياته الأوّلية البسيطة التي لم تكد تلاحق الانطباعات العفوية ولذة جمالية النصوص وأساليبها دون قواعد أو نظريات واضحة، وقد يكون الضيق بالنقد أحيانا بسبب جور الناقد وتعسفه بالحكم أو غموض ما يقوله أو نظرته القاصرة للنص، بحيث لا يفيد منه لا صاحب النص ولا متلقيه.

وقد يكون الضيق به راجعا إلى المبالغة في تقدير دوره، أو النظر إليه أحيانا على أنه ضرب من الإبداع لا يقلّ شأنا عن الأدب. وكلّها آفات يُبتلى بها النقد منذ القديم إلى اللحظة الراهنة.[2] واقترانا للتحوّل الحضاري الذي شهدته الحضارة الإنسانية مطلع القرن التاسع عشر من ثورة علمية وانتفاضات فكرية ومعرفية، رُكن النقد الانطباعي والتقليدي على هامش القديم، الأمر الذي يقتضي بكل تأكيد ميلاد منعطفات نقدية جريئة الأساس فيها الصبغة النظرية والعلمية، وأوّل منعطف في رحلة النقد هي ما يعرف بالمناهج السياقية.

تفتح المناهج السياقية مجال الدراسة على كلّ ما هو خارجي ومحيط بالنص، وتؤمن بإمكانية فهم النص وإدراك موضوعاته انطلاقا من بيئة إنتاج معارفه الاجتماعية ودفاتره التاريخية ودوافعه النفسية، وهذا يتطلب معرفة جامعة بصاحب النص وايديولوجيته وحياته وتاريخه الطويل، وكما يبدو تحثّ القراءة السياقية التركيز على ظروف إنتاج النصّ أيّ معرفة كلّ الاحتمالات الواردة خارج حدوده والمسببة لميلاه وتوليها مكانة تساوي أو تفوق العمل الأدبي أو غير الأدبي _باختلاف طبيعة النصوص_ وعلى أساس السياق الخارجي يتخفى النص ومحمول النص وراء هالة المبدع أو الذات الكاتبة.

لأجل تأصيل المفاهيم النظرية للمناهج السياقية لابد من معرفة هذه التوجهات الفكرية والعلمية وتحديد آلياتها المنهجية، هذا وجه، وعرض المقاربات النقدية التي تحدد كيفيات ممارستها واعتمادها في مجال تحليل الخطاب في نماذج منتقاة من المشروع النقدي للناقد بسام قطوس، وهذا وجه آخر يستدعي التساؤل: ما هي المناهج السياقية؟ وما الكيفية التي تسمح بتحليل الخطاب من خلالها؟

1.1 فرضيات الدراسة:

- تتميز المناهج الخارجية باعتنائها بما هو خارج النص.
- تركز القراءة السياقية على ظروف إنتاج النص بالدرجة الأولى.

- النص من منظور المناهج النسقية وثيقة تاريخية ورؤية مجتمعية ترجمها المؤلف استجابة لأيديولوجياته ومجتمعه.

- الخروج عن النص في حدّ ذاته يحتمل أت تكون قراءة أخرى لتسمية المناهج السياقية إذ تبدي اهتماما بالمؤلف وأسباب ميلاد النص أكثر من مادة النص الأصلي.

- القراءة السياقية تمتلك قيمة يسهل نقدها سلباً ويتعذر لمحها إيجاباً دون تمحيص وقراءة وتحليل.

1.2 أهداف الدراسة ومنهجها:

تروم هذه الدراسة إلى تحديد صورة مرتبة عن الخلفيات المعرفية والعلمية للمناهج السياقية وتأصيل مفاهيمها (**Contextuelles approches**)

- عرض وتفكيك المفاهيم النظرية التي تقوم عليها القراءة السياقية والاستفادة من نماذج وممارسات نقدية طبقت هذه التوجهات لتحليل الخطاب.

- تقويم مدى إمكانية القراءة السياقية من تمكين القارئ لمعالجة وبناء تحليله النقدي الموازي للنص الأصلي بالإضافة إلى ما يحيط بالنص في الطرف الثاني من معادلة المتفاعلات المؤثرة والمتأثرة (نص المؤلف/ سياق خارجي/ قارئ) ويكون التقويم على أساس قدرة القارئ على التوفيق بين التنظير والممارسة.

- نتبنى في هذه الورقة المنهج الوصفي القائم على آليات التحليل كونه مناسبا لما تقتضيه متطلبات الإخبار والوصف، بالتركيب مع ما تتطلبه الموازنة وآلياتها اللازمة للتقويم، والمنهج بتركيباته هنا وسيلة نصفي بها الجهود النظرية والإجرائية المنجزة في مرحلة القراءة السياقية، ليأتي الانتقاء على أساس فكر المؤلف وأصالة نصّه، والقيمة المضافة تأتي بعد الاختيار بدل الترك، والقبول بدل الرفض من منظور الموازنة والتفسير.

2. المناهج السياقية

السياق مفهوم مركزي في مجال تحليل الخطاب، وتقوم عليه مختلف الدراسات التقليدية المنجزة في حقول اللغة والعلوم الاجتماعية،[3] وليس السياق مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية من أحوال اللفظ. وفضلاً عن ذلك، لا تظل المواقف متماثلة في الزمان، وإنما تتغير.

ولأجل ذلك فكل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث القائمة [4] في موقف تواصليّ تحدده على الأقل جماعة لسانية في مدة زمنية محددة. وقد ذهب النقاد والدراسون إلى تحديد المفاهيم النظرية للمنج السياقي بأنه: المناهج الخارجية أو السياقية هي المناهج التي عاينت النص من خلال إطاره التاريخي

والاجتماعي أو النفسي؛ وهي دعوة ضمنية إلى الإلمام بالمرجعيات الخارجية، مع تحفظ على الدخول في النص إلا من خلال تلك السياقات المحيطة به.[5]

يرى وليد قصاب بأن معرفة التاريخ السياسي والاجتماعي لأي أدب من الآداب هي لازمة لا غنى عنها لدراسة هذا الأدب وتعرفه وفهمه وتفسيره، وكثيرا ما يستحيل فهم نص أدبي قبل دراسة تاريخية موسعة للوقائع والظروف والملابسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت وراءه.[6]

كما تدرس المناهج الخارجية النصوص الأدبية في ظروف نشأتها والسياقات الخارجية لها والتأثيرات التي يتوقع للنص أن يؤثر بها فيما يحيط به.[7]

أطلق على هذه المناهج تعبير التعامل الخارجي مع النص، حيث أنه يغلب فيها نمط المقاربة التحليلية التي تعالج النصوص على أساس مرجع خاص منفصل عنها وقائم خارجها بغض النظر عن طبيعة هذا المرجع. فهذه المناهج السياقية تعاين النص من خلال إطاره الخارجي أو الاجتماعي أو النفسي، وتظهر السياق العام لمؤلفه.[8]

مما سبق نستنتج أن المناهج السياقية تنطلق في معالجة النصوص من المحيط الخارجي والظروف المؤدية لإنتاج النص والدافعة لمؤلفه لإنتاجه، وهي تلك المداخل النفسية والتاريخية والاجتماعية التي تسمح بقراءة النص:

3. القراءة التاريخية للخطاب (Historical reading of discourse)

يقول المفكر عبد الله العروي: " الإنسان تاريخي بالتعريف" والرجوع إلى الملفات التاريخية أمر أشبه ما يكون لفرصة يعود فيها الإنسان إلى لحظة ماضية فيطاردها محاولا القبض على حقيقة ما فهل يصنع؟ إن الحقيقة والتاريخ شئنان أقرب إلى السراب من أن تلمس حدا فاصلا اتجاه كل منهما فالحقيقة اقتراب من المطلق والتاريخ يخشى عار الزيف وهو بذلك نسبي يحتمي بالتوثيق والحفظ. والقول بأن نفض الغبار عن مستحاثة بالغة القدم والقدسية أمر يشابه ملاطفة الحقيقة الملموسة ورغم ذلك القرب من لمسها والإحاطة بها تصدم بحلقة مفقودة تترجم الآن بالصمت وهي ما يفتح باب التأويل في الزمن النقدي الحاضر.

الحلقة المفقودة هي هاجس الحكم على حقائق النص كاملة بالاعتماد على حوادث التاريخ المعلومة بصورة شبه مكتملة أو قل ناقصة، وهذا نوع من المغامرة النقدية. ولذلك عُدّ المنهج التاريخي أول المناهج وأقدمها وأكثرها شيوعا في القديم وفي الحديث. وهو منهج يصنف حالياً في المناهج التقليدية التي توصف في العادة بأنها تقارب النص الأدبي من الخارج، أي إنها تهتم بأصل النص أكثر من اهتمامها من النص ذاته.[9]

وإنّ الناقد التاريخي يستعين بتاريخ العصر ونظمه السائدة على استجلاء النص الأدبي النص الأدبي، وإدراك ما خبأه الزمن وراء حروفه والعلم بما تضمنه أو أشار إليه من وقائع ومواقع وأحداث وأعلام.[10]

وأمّا أعلام المنهج التاريخي في النقد الحديث فهم فرديناند برونتير **F. Bruntiere** وسانت بيف **S.Beuve** وهيبوليت تين **H.Taine** ولا يمكن المرور دون ذكر جهود المعلم البارز من روّاد النقاد العرب وهو القاضي الجرجاني (395 ه) الذي ربط في نقده بين أحوال البداوة والتمدّن الاجتماعي والصياغة الأدبية من خلال عادات الناس وألسنتهم وأخلاقهم.[11] ولبّ الحديث أنه جعل بين الملفوظ (الخطاب) وقائله (المؤلف) ببيئة إنتاج الخطاب، ووضح أن للبيئة أثر لخلق التفاضل بين أبناء العصر

لقد عرف المنهج التاريخي بأنه الطريقة التاريخية التي تعمل على تحليل وتفسير الحوادث التاريخية، كأساس لفهم المشاكل المعاصرة، والتنبؤ بما سيكون عليه المستقبل. فهو منهج يقوم على إبراز الصلة بين الأدب والتاريخ بمعنى أنه يربط النص وصاحبه بالبيئة والعصر التي سبقته. فكل عمل أدبي هو ظاهرة تاريخية وثمرة فنان معين، وزمن وحضارة معينة،[12] وهذا يختزل باب القول في المفاهيم المتعلقة بالمنهج التاريخي وتحديدها.

ويمكن تحديد أبرز إجراءات النقد التاريخي وأهم ملامحه الكبرى في أنه تعرّف لسيرة المؤلف وتتبع حياته، ومراحل نشأته، والظروف المختلفة التي أثرت فيه، وقد اهتم الناقد الفرنسي سانت بيف كثيرا بالأديب من جوانبه المختلفة، فتناوله من خلال شخصيته وأسرته ووضعه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وذلك ليفسر العمل الأدبي في ضوء هذه المعارف. وإذا كان العمل الأدبي مرتبطا بصاحبه، يفسّر في ضوء معرفة سيرته وحياته، فإنه يخضع لعوامل أخرى خارجية، تساهم في تشكيله على نحو معيّن سماها الناقد تين: الجنس والبيئة والعصر.[13]

1.3 قراءة بسام قطوس

خصص الناقد بسام قطوس الباب الأول من مؤلفه "المدخل إلى مناهج النقد المعاصر " لتحديد المفاهيم المتعلقة بالمناهج الخارجية؛ وقد حددها المؤلف بثلاث اتجاهات كبرى تمثلّت في المنهج التاريخي، المنهج النفسي والمنهج الاجتماعي، وحاول بذلك تأصيل المفاهيم النظرية الخاصة بهذه المناهج مركزا على عرض جهود المنظرين الغرب في مقابل ما نظرّ له النقاد العرب في مختلف أطروحاتهم النقدية منذ القديم.

عرض المؤلف صورة مرتبة لإرهاصات المنهج النقدي التاريخي عند أعلامه الثلاث؛ فرديناند برونتيير وسانت بيف وهيبوليت تين، وهم أعلام المنهج التاريخي في النقد الحديث، وبيّن في خطّ زمني موقع هذا المنهج ومحلّه من تاريخ النظريات النقدية منذ تبلوره داخل المدرسة الرومانسية وانبثاقه عنها، فالرومانسية هي التي بلورت وعي الانسان بالزمن وتصورّه للتاريخ ووضوح فكرة التسلسل والتطور

والارتقاء، والقضاء على فكرة الدورات الزمانية والحركة الانتكاسية للزمن والتاريخ التي كانت تضع العصور الذهبية في الماضي وتنظر إلى الحاضر باعتباره تحللا وانهيارا. كانت هذه فكرة المدرسة الكلاسيكية، وهذا التصوّر التاريخي هو الذي عكس النظرة الكلاسيكية التي ظلت تؤمن بأن الأدب والابداع هو شكل من أشكال المحاكاة **Imitation** للمفكرين القدامى، وأن الأدب من منظورهم يمثّل النموذج الأرقى في مجال التطوّر التاريخي.[14] وكان هذا المنهج التاريخي بهذا أولى مظاهر التحوّل في مسار المناهج النقدية.

أيضا تجلى الاتجاه التاريخي في جهود النقاد العرب المحدثين أمثال عباس محمود العقاد في كتابه "شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي"، والجهد الجليّ لطه حسين في كتابيه "حديث الأربعاء" وكتابه "مع المتنبي" وقد درس في كتابه "حديث الأربعاء" أثر البيئة على الأدب في العصر الأموي لذلك تجد دراسته حول أثر بيئة الحجاز وبيئة البادية في إنتاج الغزل الصريح في عصر بني أميّة.[15] وهناك فئة وسطية لا تنحاز لتأييد أو رفض للمنهج التاريخي، فتجدهم يعترفون بهذا المنهج لكن بتحفظ لاقتناعهم بمآخذ مسجلة حول هذا الاتجاه.

يجدر القول بأن المنهج التاريخي لا يحظى بإقبال النقد الحديث اليوم كثيراً، وفي حين يستبعده كثير من النقاد نهائيا من ساحة الممارسة النقدية، يرى آخرون أنه ما يزال للمنهج القدرة على أداء دور ما في مجال النقد، بل في أي مجال آخر. والحقيقة أن لهذا المنهج _شأنه شأن أي منهج آخر_ مآخذ لا تلغيه، ولكنها تنفي إمكانية الاعتماد عليه وحده.[16]

4. القراءة النفسية للخطاب (psychological reading of discourse)

إنّ لجوء النقد إلى العلوم والاستنجاد بها لفهم الأدب أمر دارج في وقتنا تحت ما يعرف بالتركيب المعرفي، فأصبحنا نلاحظ طبقات معرفية مختلفة ومتضافرة في الخطاب الواحد، من تاريخ وعلوم نفسية وأنثروبولوجية ولسانية وغيرها.. فكيف يتدخّل علم النفس في الممارسة الإنتاجية للخطاب؟ بل كيف تكون القراءة النفسية مدخلا يتبعه الناقد ليتجه صوب معاني النص المجهولة؟

إن استخدام علم النفس وما وصلت إليه الدراسات فيه من نظريات مرسومة وقواعد محدودة وطرائق خاصة لفهم الأدب ونقده، هي أشياء مستحدثة بلا جدال، وقد استمدها العرب فعلاً من أصلها الغربي متأثرين بفكرهم وثقافتهم. ولكن تدخل الملاحظة النفسية بصفة عامة في فهم الأدب ونقده فهي أقدم بكثير من ذلك في أدبنا العربي. ذلك أنها عاصرته منذ صدر الاسلام أو ربما قبل ذلك، ونمت وتطورت معه حتى بدت في هيئة قواعد ونظريات على يدي عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري ثم توقفت هناك. فحقيقة أنها حين وجدت من جديد في نقدنا الحديث لم يكن من باب الاستئناف لتلك الخطوات البعيدة، إنما كانت ابتداء واستمدادا من الغرب.[17]

وقد فهم بعضهم أن علم النفس قد أحاط بالنفس الانسانية خبرا من جميع جهاتها وأن فروضه وتعليلاته قد صارت حقائق مسلما بها، ويمكن تطبيقها على كل شخصية فردية. وهذا وهم كبير. كما أن بعضهم لم ينتبه إلى أن عمل الأديب غالبا مضاد في طريقته لعمل المحلّل النفسي فالمحلّل النفسي يميل لتحليل الشخصية إلى عناصر متفرقة ليسهل عليه فهمها وتحليلها، والأديب ميال إلى تركيب العناصر المفردة المكونة لها.[18] الأمر الذي يصعب توفره لدى المحلّل النفسي.

ينظر الى المنهج النفسي على أنه من المناهج التقليدية وأنه يتعامل مع الأدب من الخارج، إذ يركز على شخصية المبدع. ويقارب عمر التحليل النفسي للأدب حوالي مئة عام، فقد بدأ منذ مطلع القرن العشرين تقريباً، وهو لم يجئ من رحم الفلسفة كبقية المناهج الأخرى بل جاء من عيادات الأطباء فقد كان فرويد (S.Freud) أبرز رواد هذا المنهج.[19] وهو الذي رسخ المنهج النفسي منهجا في النقد الأدبي وتلاه تلامذته كارل جوستاف (G.G.Jung) يونغ وإدلر (Adler) وبعد ذلك أصدر فرويد كتابه الشهير تفسير الأحلام ومجموعة من الدراسات النفسية لمجموعة من الأدباء والفنانين من مثل: فلهلم ينسن في قصته "جراديفا « Gradiva» حلّل المبنى الحلمي وتقنياته الرمزية ودراسته عن ليوناردو دافنشي ومقاله عن دوستوفسكي وجريمة قتل الأب. [20]

ويضاف إلى مساهمة علماء النفس هؤلاء ودراساتهم حول أهمية العقل الباطن أو اللاشعور في الإبداع الفني عدد من النقاد وباحثي الأدب الذين وجدوا أمامهم كماً هائلا من المعلومات التي تعينهم على تفسير عملية الخلق الفني بعامة وتهيئ لهم الوسائل للكشف عن الأثر الأدبي بالإشارة إلى حياة صاحبه تارة أو جلاء المعنى الحلمي تارة أخرى.[21] وقد ركز المنهج النفسي في دراسته للخطاب الأدبي على هذا الجانب بصورة خاصة، أي جانب ارتباط الابداع الأدبي بالحلم.

ويبدو أن امتدادات المنهج النفسي في دراسة الأدب وتحليله قد تجاوزت طروحات اللاوعي الفردي والجمعي، والكشف عن مظاهر الشذوذ والتركيز على الدوافع الجنسية ومركبات النقص، إلى فحص بعض أساليب الأدب والفن والسعي لتفسير هذه المظاهر النفسية انطلاقا من غموض اللغة ودلالات الأخيلة والرموز الموروثة. فضلاً عن إثرائه المعارف النفسية للقارئ، وتمكينه من البحث في صلتها بشخصيات أصحابها. وقد استهوى المنهج النفسي عددا من النقاد العرب فقدموا عددا من الدراسات النقدية النفسية مستفيدين من طروحات علم النفس. وهو ما يرام كشفه في نماذج عربية خصّها الناقد بسام قطوس بالدراسة من منظور نفسي، حيث خصص لهذه الدراسة كتابه "المنهج النفسي في النقد الحديث: النقاد المصريون نموذجا"[22] وقد درس فيه بشكل عام تمثّلات المنهج النفسي لدى عدد من النقاد المصريين كالعقاد والنّويهي وغيرهم، ووقف على مواقع إسقاط المنهج النفسي لدى فرويد وتلامذته على منحنى الممارسة الإبداعية لهؤلاء الأدباء.

يقدّم الناقد بسام قطوس قراءته في جانب الممارسة النقدية للمنهج النفسي، ويشير بأن أصحاب هذا المدخل يرون إمكانية تحقيق الوحدة للقصيدة من خلال سيطرة جو نفسي واحد لإحداث أثر نفسي واحد، وبث إيحاء واحد يتغلغل في كل جزء من القصيدة. ويعبرون عن محاولة لتنسيق الصور، وفقا لحركات النفس التي تتجدد وتتلون مع كل عاطفة وكل شعور، بعد أن كان المتحكم في هذه الصورة مجموعة من القوالب الطبيعية الخارجية المحدودة والمفروضة فرضا والقائمة من قبل. وهنا لا بأس في أن يجتمع في القصيدة الشيء وأشد الأشياء تباعدا عنه وتنافرا معه، ما داما يتآزران على إحداث أثر نفسي واحد.

ويعرض بسام قطوس رؤية الناقد عز الدين إسماعيل كونه من أوائل نقادنا الذين أطّروا للمنهج النفسي في النق العربي، حيث توفّر على دراسات من الأدب العربي والغربي، في ضوء المنهج النفسي، مستفيدا من علم النفس التحليلي، من غير أن يزج بمصطلحات علم النفس أو يقحمها في موضوع دراسته. بل توجه لقراءة العمل الأدبي وتوضيح العلاقات بين الألفاظ والرموز، وبين الشكل والمضمون. ومن هنا يتضح إدراكه أن للصورة فلسفة جمالية مختلفة فأبرز ما فيها "الحيوية" التي تجعلها تتكون عضويا، وليست مجرد حشد مرصوص من العناصر الجامدة.[23]

موقف آخر يعرضه الناقد بمقولة استوقفت حسن عطوان، وهي المقولة التي شاعت خطأ عن القصائد الجاهلية من أنها لا تتوافر لها على الوحدة الموضوعية والعضوية، فيذهب إلى أن اهتمام بعض الدارسين بوحدة الموضوع قد أدى بهم إلى إهمال الوحدة النفسية في القصائد الجاهلية. والتي تكمن في سيطرة عاطفة أو ضرب من العاطفة، منبثقة الشعور، على القصيدة كاملة، بحيث تشيع هذه العاطفة في كل أجزاء القصيدة. وفي هذا السياق درس حسين عطوان قصيدة جاهلية للمثقب العبدي (النونية) التي أنشدها عمرو بن هند أحد ملوك المناذرة إثر تنكر الثاني لقبيلة عبد القيس. وكان المثقب مطمئنا إلى شدة بأس قبيلته وكثرة أخوتها من القبائل الربيعية وأنفتها، فسادت قصيدته عاطفة مشوبة من المكاشفة والمصارحة والمجابهة والمقارعة.[24]

ومن خلال القراءة النفسية التي قدمها حسين عطوان يلحظ الباحث مع كلّ مقطع من بينة القصيدة غرابة وتساؤل؛ بداية من مقدمة القصيدة الطلليّة التي طغت عليها مشاعر القسوة والخشونة وهو أمر خارج عن المألوف، ثم توسع وأساب في تصوير رحلته في حين أوجز واقتضب في مدح عمرو بن هند في بيت يتيم، حتى لا يقع في ذهنه أن جاء مستعطفا، ومن المدح سار إلى الحوار ليختم بذلك قصيدته بفيض من نقاء السريرة وجيّد الحكمة. وبهذا كانت قصيدة الشاعر مزيجا من العواطف والقوة والتمرّد والشموخ. وكلّها على اختلافها رسمت ملامح الصورة الفنية للقصيدة وشكلت مضمونها النفسي والفكري.

ولعل أبرز عيوب المنهج النفسي معاملته العمل الأدبي بوصفه وثيقة نفسية ذات مستوى واحد، مع العلم أن العمل الأدبي أو الخطاب على وجه العموم، يتشكل من طبقات معرفية مركبّة ومفردة على اختلافها وتداخلها ربما كان أحد هذه المستويات المستوى النفسي. وهنا يكون تقييم النصوص والخوض في قراءتها على أساس تمكن العمل من البوح بنفسية مؤلفه، مما يؤدي إلى انتفاء القيمة الأدبية وهي لبّ العمل الأدبي.[25]

5. القراءة الاجتماعية للخطاب (Sociological reading of discourse)

ليس من السهل الفصل بين المنهج الاجتماعي والمنهج التاريخي في دراسة الأدب أو الخطاب، بل إنّ كثيرا من الباحثين لا يميّز بينهما أصلا؛ إذ هما معا يعنيان ارتباط الأدب والأديب بالحياة في وجوهها كافة، وبظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وسيرة الأديب وحياته العامة والشخصية.

وفي مجال تحليل الخطاب تؤول الممارسة الاجتماعية على أوجه مختلفة من الدراسة: "فإمّا أنّ البنى الاجتماعية كيانات مجردة جدا يمكن تصوّر بنية اجتماعية ما كونها تحدّد احتمالات، أي مجموعة من الإمكانات (مثال ذلك: بنية اقتصادية أو طبقة اجتماعية أو لغة). لكنّ العلاقة بين الممكن بنيويا وما يحدث فعلا بين البنى والأحداث، هي علاقة شديدة التعقيد. لا تنتج الأحداث بطريقة بسيطة ومباشرة من البنى الاجتماعية المجردة، فالعلاقة بين الطرفين تتم بوساطة: توجد كيانات وسيطة تنظم العلاقة بين البنى والأحداث".[26]

وهنا نشير إلى أن البنى الاجتماعية تحمل ضمنيا في قوالب لغوية لتؤدي وظيفة الخطاب. حيث يمكن اعتبار اللغة جزءا من البنى الاجتماعية كونها حقيقة ممكنة محددة، أو احتمالا ممكنا، وفي الحالتين، تكون البنية الخطابية في جانب منها عبارة عن بنيات اجتماعية ممكنة محمولة في سياق لغوي محدد. وهو رأي مقبول. ويمكن التعبير عن ذلك في الآتي:

البنى الاجتماعية
الممارسات الاجتماعية: نُطق الخطاب
الأحداث الاجتماعية: النصوص

تقترب الممارسة الاجتماعية من القراءة التاريخية للخطاب، على أساس اهتمام المنهج الاجتماعي بخلفيات بيئة المؤلف وعصره تشريح أزمات مجتمعه، وهذا يمسّ الذات الكاتبة كما يلاحق البنية

الاجتماعية الموجودة في بنية النص في حد ذاته، وهنا وجه اختلاف بين هذا المنهج والمناهج الخارجية الأخرى. وينهض المنهج الاجتماعي من المنطلقات التالية:

- ربط النص بالمجتمع، فالظروف الاجتماعية هي البيئة الفعلية لإنتاج النصوص ومنها يتشبع النص بالأفكار والايديولوجيات.

- يقدم النص صورة عن المجتمع وعن النتاج الأدبي والفكري لمؤلفي ذلك العصر .

- العلاقة بين المؤلف ونصه هي علاقة جدلية قائمة على التأثير والتأثر، فالأديب أو الكاتب يؤثر في مجتمعه إيجابا وإصلاحا، والمجتمع بدوره يحمّل الكاتب على الكتابة انطلاقا من ظروف وعوامل خارجية يفرضها عليه.

- الأدب ظاهرة اجتماعية، والأديب لا ينتج أدباً لنفسه، وإنما ينتجه لمجتمعه منذ اللحظة التي يفكر فيها بالكتابة وإلى أن يمارسها وينتهي منها. [27]

- وبناء على ما تقدّم يبدو الأدب ضرورة لا غنى عنها، وهو نشاط اجتماعي متميّز، فهو ليس ترفا ولا زخرفة بل هو حاجة ماسة والإنسان لا يستطيع أن يقيم حضارة من دونه. إذ لابد للحضارة من تكامل بين الحاجات المادية والروحية بل إن إنسانية الحضارة بالأدب والثقافة والفنون وما شاكلها..[28]

وهنا تبدو المسألة فلسفية، فهل الأدب ظاهرة اجتماعية وحسب، أم هو ظاهرة لغوية وجمالية ونفسية وثقافية؟ ولا يمكن تجاوز حقيقة حاجة النقاد إلى فهم الخلفيات الاجتماعية للنصوص نظرا لظهورها البارز في بنياتها ومضامينها، ويقول ديفيد ديتش: "كثيرا ما نحتاج في الواقع إلى عون المؤرخ الاجتماعي ليفسّر لنا ما هو الأثر الأدبي في حقيقته.. وقبل أن نقوّم شيئاً لابد من أن نعرفه على حقيقته وإن كان الغرض الأول للناقد الأدبي أن يرى الأثر الأدبي على حقيقته فإن عالم الاجتماع _كالمؤرخ_ يستطيع أن يقدّم له عونا في الغالب"[29]

ومن هذا القول يظهر أن المعرفة بالشيء هي إعتراف بوجوده، وحضور السؤال حول الخلفيات الاجتماعية والتاريخية التي يرى منها الناقد مجرد الأثر الصامت سبب كاف لينظر للعمل الأدبي أو غيره من ناحية احتوائه على مضامين فكرية واجتماعية لا سبيل لفهم النص قبل حصول المعرفة المسبقة بها.

يؤكد أصحاب المدخل الاجتماعي على أن العمل الأدبي الفني يتمّ من خلال فكرته أو مضمونه مركزين على الدلالات الاجتماعية في الأعمال الأدبية.[30] ولأن الماركسية هي من أكثر المذاهب الفكرية اهتماما بالنقد الاجتماعي وتأثيرا فيه في الوقت نفسه، فإنها حكّمت الايديولوجيا بشكل صارخ في الحكم على الأدب وفي تفسيره ودراسته وبدا هذا المنهج على يديها ذا نزعة صارخة في التعسف والحكم... وترى الماركسية في الكلام على العلاقة بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي أن الشكل الفني تابع للمضمون

الفكري، وهم بهذا قد بالغوا حدّ الإسراف في تقدير حول الايديولوجيا بالنسبة للأدب حتى سمي نقدهم بالنقد الايديولوجي، والنقد المضموني.

وهذا تعميم في الحكم، فالنقد الاجتماعي نقد مضموني يحكم على النص وفق ما يحمله من مضامين اجتماعية وفكرية، ولا شك أنّ التجربة الأدبية رؤية إنسانية واضحة تعكس نبض الواقع في صراعاته الدائمة وسيرورته المستمرة. ولذا فإنهم يطرحون قضية الوحدة من الجانب الايديولوجي الشعري أي حين يحوّل الشاعر القضية من مستواها السياسي أو الاجتماعي المباشر إلى المستوى الشعري المتفرّد. ولا يعني هذا أن تظلّ الفكرة السياسية أو الاجتماعية مجرد هيكل عقائدي أو نظري أو إخباري، وإنما ينبغي أن تمتزج بوعي الشاعر ولا وعيه وثقافته وخبراته الجمالية في استخدام أدوات التعبير حتى تتحوّل إلى تجربة شعرية حيّة.[31] والعمل الأدبي ليس لغة ومعاني، ولكنه تركيب عضوي يتألف من عمليات بنائية تتكامل فيها الصورة والمادة تكاملا عضويا حيّا.[32]

يقول مارشيه: إإن روائيا جيدا من دون إيديولوجيا أمر لا يمكن تصوره" فالإيديولوجيا جزء هام في الأثر الأدبي ل يمكن تجاهلها، ولكنّ الأدب كالرواية مثلا ليس تعبيرا عن الإيديولوجيا ولا انعكاسا للمجتمع، بل هو صناعة تخييلية بالدرجة الأولى.

لا شك في أهمية القراءة الاجتماعية للأدب، فالأدب وجه من وجوه النشاط الاجتماعي، وعلاقة الأديب بالحياة مما لا يشك فيها أحد. ولهذا من مزايا هذا المنهج الاجتماعي أنه قد أنضج في النقد مجموعة من المفاهيم والمصطلحات النقدية مثل (الفن للمجتمع) و(رسالة الأدب) و(الأدب الملتزم) و(الأدب الثوري) و(الواقعية النقدية) و(الواقعية الاشتراكية)، وجميعها تشير إلى رسالة الأدب والأديب أو النص والمؤلف وتهدف إلى الدعوة لإصلاح المجتمع دون إنكار قيمة النّص الجمالية.[33]

ومن هنا فقد علمنا المنهج الاجتماعي أن نفتح أعيننا على قراءة حياتنا وعلاقاتنا بالعالم من حولنا. فلم يعد المعنى فقط هو الموجود أو المحصور في النصوص، وإنما جعل مكانا للقارئ من خلال إبراز ذاته الاجتماعية الواضحة، كما حمى النص من التلاشي والتحوّل إلى مجرد ملخص، وإضافة لسلطة معرفية أخرى. فالقراءة النقدية الاجتماعية هي في بعض وجوهها ورغم كل مجازفاتها، قراءة الإمكانات الكامنة في للتاريخ في صيرورته.[34]

6.خاتمة:

نلخص في نهاية هذه الورقة البحثية مجمل ما ورد في الحديث عن القراءة السياقية للخطاب في محاولة لاختزال بسط ومقال هذه القراءة إلى صورة مدققة لأبرز الآراء النظرية والإجرائية التي أصّلت لمفاهيم النقد السياقي، ونلخصها في النقاط الآتية:

- المناهج الخارجية أو السياقية هي المناهج التي عاينت النص من خلال إطاره التاريخي والاجتماعي أو النفسي؛ وهي دعوة ضمنية إلى الإلمام بالمرجعيات الخارجية، مع تحفظ على الدخول في النص إلا من خلال تلك السياقات المحيطة به، وتشمل ثلاثة توجهات كبرى هي: المنهج التاريخي، المنهج الاجتماعي والمنهج النفسي.

- أطلق على هذه المناهج تعبير التعامل الخارجي مع النص، حيث أنه يغلب فيها نمط المقاربة التحليلية التي تعالج النصوص على أساس مرجع خاص منفصل عنها وقائم خارجها بغض النظر عن طبيعة هذا المرجع. وتعاين هذه المناهج النص من خلال إطاره الخارجي أو الاجتماعي أو النفسي، وتظهر السياق العام لمؤلفه.

- عرف المنهج التاريخي بأنه الطريقة التاريخية التي تعمل على تحليل وتفسير الحوادث التاريخية، كأساس لفهم المشاكل المعاصرة، والتنبؤ بما سيكون عليه المستقبل.

- تقوم القراءة التاريخية على إبراز الصلة بين الأدب والتاريخ بمعنى أنه يربط النص وصاحبه بالبيئة والعصر التي سبقته. فكل عمل أدبي هو ظاهرة تاريخية وثمرة فنان معين، وزمن وحضارة معينة.

- القراءة النفسية تركز في دراسة النص على ثلاثة اتجاهات وهي: الإنتاج النصيّ، والمؤلف، والقارئ أو المتلقي، وتقدم لكل اتجاه من هذه الاتجاهات تصوّرا معيناً.

- تقترب الممارسة الاجتماعية من القراءة التاريخية للخطاب، على أساس اهتمام المنهج الاجتماعي بخلفيات بيئة المؤلف وعصره تشريح أزمات مجتمعه، وهذا يمسّ الذات الكاتبة كما يلاحق البنية الاجتماعية الموجودة في بنية النص في حد ذاته، وهنا وجه اختلاف بين هذا المنهج والمناهج الخارجية الأخرى.

7. الهوامش:

[1] ينظر: وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، د.ط، 2007، ص 17

[2] المرجع نفسه، ص 9

[3] Ingrid de saint-georges, context in the analysis of discourse and interaction, provided by open repository and bibliography- Luxembourg, p1

[4] ينظر: فان دايك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، بيروت، لبنان، د.ط، 2000، ص258

[5] بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، دار فضاءات، عمان، ط1، 2015، ص19

[6] وليد قصاب، مرجع سابق، ص 23

[7] عبد الله خضر حمد، مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 17

[8] ينظر: المرجع نفسه، ص 18

[9] وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية ،مرجع سابق، ص 23

[10] المرجع نفسه، ص24

[11] بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، مناهج وتيارات، ص 33

[12] عبد الله خضر حمد، مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، ص21

[13] وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية مرجع سابق، ص21-22

[14] ينظر: بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، 2006، ص42

[15] بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، مناهج وتيارات، ص36

[16] ينظر: وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، مرجع سابق، ص31

[17] ينظر: سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط8، 2003، ص 218

[18] المرجع نفسه، ص 216

[19] وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، مرجع سابق، ص52

[20] بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، مناهج وتيارات، ص43

[21] المرجع نفسه، ص 43

[22] المنهج النفسي في النقد الحديث: النقاد المصريون نموذجا، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2004، كتاب محكّم في أصله أطروحة علمي قام بها الدكتور بسام قطوس أنجزت سنة 1985.

[23] بسام قطوس، وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، دراسة في تطور المفهوم واتجاهات النقاد المعاصرين، دار الكندي للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ط1، 1999، ص192

[24] المرجع نفسه، ص205-208

[25] ينظر: بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، مرجع سابق، ص47

[26] ينظر: نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، تر: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص60

[27] ينظر: بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، مرجع سابق، ص62

[28] ينظر: وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، مرجع سابق، ص37

[29] المرجع نفسه، ص44

[30] بسام قطوس، وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، دراسة في تطور المفهوم واتجاهات النقاد المعاصرين، مرجع سابق، ص209

[31] المرجع نفسه، 209

[32] المرجع نفسه، ص 212

[33] بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، مرجع سابق، ص55

[34] المرجع نفسه، ص56